التحاق الطفل بالمدرسة في الجزائر. دراسة أنتربولوجية للممارسات و التمثلات

Joining the school for the first time in Algeria

معروف أسمة[1]، معتصم ميموني بدرة[2]

[1] طاللبة دكتوراه، المدرسة الدكتورالية للأنتربولوجيا،جامعة محمد ابن احمد وهران2 asmamarouf@yahoo.fr

[2] أستاذة التعليم العالي، جامعة محمد ابن احمد وهران2 ، b_mimouni@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2021-09-07 **تاريخ القبول:** 2021-12-12 **تاريخ النشر:** 2021-12-30

ملخص:

نقترح عليكم في هذا المقال دراسة أنتربولوجية لمرحلة التحاق الطفل بالمدرسة في الجزائر. نهتم بالطفل من جهة و ما يمثله هذا الحدث من الجانب النفسي الإجتماعي (العبور و الإنتقال) و بالأسرة من جهة أخرى (الممارسات و التمثلات).هدفنا هو معرفة مدى تأثير التغيرات الإجتماعية التي عرفها المجتمع الجزائري على الأفعال، الإختيارات، التوجهات ، المعتقدات و التمثلات.

الكلمات المفتاحية: الإلتحاق بالمدرسة، الطفل، الأسرة، الممارسات، التمثلات، التغير الإجتماعي.

Abstract :

The subject of this topic is to study the impacts of the first phase when a kid joins the school.

In addition, we will focus on the psychological, social, and anthropological effects that this event leaves on the family from one side. From the other side different behaviors, acts and forms that can be associated with this event. .

Through our presentation and analysis of this different behaviors and acts before and after joining the primary school, we found out that sociological changes that we have been through these last years have a direct influence on beliefs, forms and even thoughts, which is clearly seen in daily acts.

Keywords: joining school, family, forms, acts and social changes.

المؤلف المرسل: معروف أسمة، **الإيميل**: asmamarouf@yahoo.frm

1- مقدمة:

لقد استحوذ موضوع المدرسة على اهتمام كثير من الباحثيين في شتى مجالات العلوم الاجتماعية و الإنسانية و خاصة مجال علم النفس، علم الاجتماع، الأنتروبولوجيا.

أما حال البحوث المحلية في هذا المجال، فلقد قامت الباحثة مرابط إيمان)مرابط إيمان، 1998، ص61) بحوصلة بحث وثائقي شمل مجمل الدراسات التي تناولت موضوع المدرسة و المتواجدة على مستوى المركز الوطني للبحث في الأنتروبولوجيا الاجتماعية و الثقافية ،و صنفتها إلى ثلاثة أصناف و هي محاولات، دراسات نظرية و أخرى ميدانية.

فلاحظت أن أغلب الدراسات النظرية و المحاولات، تناولت هذا الموضوع في الإطار الماكروسوسيولوجي بمقاربة فلسفية نظرية من خلال الاهتمام بالفعل و إرجاعه إلى نموذج مثالي موجود مسبقا في ذهن الباحث، ما أثر على توجه هده الدراسات فأصبح هدفها أخلاقي إصلاحي سياسي أكثر منه علمي على حد قول الباحثة ، و لهذه الدراسات اهتمام واسع بالمواضيع الظرفية و التي تمثل نقطة صراع داخل المجتمع، مواضيع الهوية و المرجعية الوطنية، اللغة، التعريب، الإصلاحات التربوية. المشاكل النفسية للتلميذ، فلسفة التعلم، سياسة التعليم و التنمية و غيرها.

أما عن الدراسات الميدانية المنجزة من طرف باحثي علم الاجتماع و علم النفس، فإنها تركز حسب الباحثة على مواضيع متعلقة بالميكانيزمات المتحكمة في الفشل و الرسوب المدرسي، التكوين و الوظيفة و غيرها(مرابط إيمان،1998،ص61).

تتميز دراستنا هذه عن غيرها من الدراسات السابقة، إذ أننا سنتناول موضوع المدرسة من زاوية جديدة مغايرة وذلك بدراسة العبور و الانتقال إلى فضاء المدرسة، سنحاول أن نعرض المناخ العام الدي يتم فيه هذا العبور و نتطرق إلى أهم التمثلات، التصورات و الممارسات ، و هذا في إطار دينامية التغير الإجتماعي الذي يشهده المجتمع الجزائري.

الإشكالية:

إن التحاق الطفل بالمدرسة هو مرحلة عبور كبرى شبهت من حيث الدلالة و المعنى بمرحلة المراهقة، هناك من اعتبرها بمثابة فطام عاطفي ثاني أو ميلاد ثاني فالميلاد الأول هو الميلاد الفيزيقي البيولوجي أما هذا الميلاد الثاني الإجتماعي فهو حاسم، لأول مرة يصبح هناك مرجعية أساسية في حياة الطفل، في موازنة مرجعية الأسرة، و بالتفاعل معها، مرجعية المعلم و قانون المدرسة يدخلان على المرجعية الوالدية و قانون الأسرة، الطفل لم يعد حكرا على والديه، عليه التعامل مع هذا العالم الجديد بخصوصياته و أنظمته و علاقاته و تفاعلاته(رائد خليل سالم، 2006،ص33. (

من هنا تجلت أهمية تحضير الطفل وضرورة تجهيزه كي لا يحدث الانقطاع المفاجئ عن فضاء الأسرة وما قد يترتّب عنه من اضطرابات و مشاكل نفسية تصل إلى حدّ ما يسمى بالفوبيا La phobie scolaire ما جعل من "فضاءات ما قبل التّمدرس ضرورة ومطلب اجتماعي ونفسي مرتبط بعدة عوامل، نفسية متعلقة بالطفل من جهة وأخرى متعلقة بالتغيرات التي عرفها المجتمع ككل ".

كل هذا أدّى إلى تأسيس التربية ماقبل المدرسية، (لها تنظيم مؤسّساتي وتخصّص في المحتوى)وهي التي تمثل الإنتقال من التربية الأسريةL'éducation familiale إلى التّربية المؤسساتية التّحضيرية L'éducation institutionnelle préparatoire (بنغبريط رمعون نورية، بن عمار عائشة، معتصم-ميموني بدرة، سنوسي زوبيدة، غطاس شريفة، 1998، ص35_50(

وبالدّخول إلى المدرسة الابتدائية، سوف يبدأ"التّمدرس الذي تنظر إليه كلود ريفيير Claude Rivièreعلى أنه طقسي fortement ritualisé لأنّ هذا التّمدرس، هو إجباري و انتقائي obligatoire et sélectiveمن خلال إجراء الامتحانات أو الفروض ومعدّلات نهاية السّنة. هذه الأخيرة التي تدخل حسب ريفييرClaude rivière كعناصر أساسية من طقس المرور النهائي،

من خلال الانتقال أو التّرقية إلى الصّف أو المستوى أو الدّرجة الأعلى، والهدف هو أنه في كل عام د راسي جديد، هناك انتقال إلى الصّف التّالي . (Benamar Aicha 2012,P99)

إنّ الدخول للمدرسة للمرّة الأولى حدث لا يخصّ الطّفل لوحده، بل يشمل الأسرة كذلك، فهي أيضا معنية، وعليها التّعامل مع هذا الحدث، وتكون لديها ردود فعل des réactions ، تحدث تغيرات في الوضعيات و الأدوار، تقام عدّة ممارسات تحضيرات وتجهيزات، يعاد تنظيم فضاء الأسرة، وتقسيم العمل، وتعيش هذا الحدث كتحول في الإيقاعات الفردية والجماعية .

وعلى العموم فإنّ حدث التحاق الطّفل بالمدرسة يشبه ما يسمّى في الأنتروبولوجيا بالعبور و الإنتقال، عدّة عناصر تشير إلى ذلك:

- فالتّمدرس سيؤدي إلى تغير جدري في إيقاع الحياة بالنسبة للطّفل و الأسرة، مما يؤدّي حتما، إلى إعادة تنظيم فضاء هذه الأخيرة.
- هناك تغيير للوضع و الدور الطّفل في الحضانة يصبح تلميذا بدخوله إلى المدرسة.
- معايشة فضاء جديد أي المدرسة، ظهور أفراد جدد كالمعلمة، القوانين المفروضة من المدرسة، تقييد الحركة غير الرسمية على نحو متزايد في المدرسة، تقام عدة ممارسات طقوس و مظاهر احتفالية.
- الدخول إلى المدرسة، يتميز باجتياز عتبات مادّية)عتبة المنزل، وعتبة القسم والمدرسة(وعتبات رمزية.
- كذلك وأخيار فإنّ الطّفل وبدخوله إلى المدرسة، فهو ينتقل من الفضاء الخاصّ إلى الفضاء العام وهوما يمثل الدخول إلى الإجتماعية.

و تشير طقوس التحول أو العبور إلى تلك الممارسات التي تقام احتفالا بتحول نوعيّ يقع في حياة الأفراد و الجماعات. ويعود الفضل لأرنولد فان جينب .Arnold Van Gennep في ضبط بنية طقوس التحول وبين أنها ذات طابع كوني(منصف الحواشي، 2010، ص20) وهو الذي كون الصّورة

الأسّاسية للطّقوس التّحولية، وهي تتمثّل في رسم ثلاثيّ. "فكلّ طقس للعبور،، يتركّب من ثلاثة أزمنة: زمن تمهيديّ préliminaire آخر استهلاليّ liminaire ، وثالث اختتاميّ post liminaire من منظور آخر، يمكن أن نسميها كما يلي: (الانفصال)عن الوضع أو المكان السّابق(، الهامش)بين المرحلتين(، الانضمام)إلى وضع جديد(وتختلف هذه المراحل الثّلاثة حسب أنواع الانتقال من حالة لأخرى فردية أو جماعية كما تعيد تحديد الأوضاع و الأدوار". من هنا كانت أسئلة البحث كالتالي:

كيف يتم حدث التحاق الطّفل بالمدرسة لأول مرة، وما هي مختلف التحضيرات ، التجهيزات وأهمّ الممارسات التي تقام؟

ما هي الدلالات والمعاني التي تحملها هذه الممارسات ؟

ما هي التمثلات الاجتماعية لهذا العبور لدى مختلف الفاعلين الاجتماعيين؟

المنهجية المتبعة:

كأيّ باحث موضوعي، أرسينا عددا من الإجراءات المنهجية، يتصدّرها الوصف الموضوعي لمختلف الممارسات و التّمثلات التي يحملها حدث إلتحاق الطفل بالمدرسة لأول مرّة، معتمدين في ذلك على المنهج الأنتروبولوجي.

وكأدوات للبحث الميداني إعتمدنا على الملاحظة المباشرة أثناء الحدث ل 39 طفل إلتحقوا بالمدرسة للمرة الأولى أي أننا كنا حاضرين، و قمنا بملاحظة السلوكات و و جمع المعلومات لحظة حدوثها

قمنا بإجراء 167 مقابلة شملت، الأطفال و أولياءهم أو أحد المقربين منهم، المعلميين مدراء المدارس وكذا الحراس ، في مكان عملهم وفي أثناء الحدث أو خارجه، ولتفسير وتحليل محتوى هذه المقابلات اعتمدنا على تقنية تحليل المحتوى .

لقد أختيرت العيّنة بصفة عشوائية وشملت مبحوثيين من أصول جغرافية و أوساط إجتماعية وثقافية مختلفة، كما وقد لجأنا إلى استخدام معارفنا من الأصدقاء و الأقارب .

أقيمت الدراسة بكل من ولاية وهران(مدرسة فريحة محمد ومدرسة حسن قويدر)، الجزائر العاصمة (مدرسة رابح بيطاط ومدرسة الحي الدبلوماسي) و البليدة (مدرسة محمد بن يمينة ومدرسة وخّام محمد.(

الممارسات الملاحظة:

الطقوس العادات و التقاليد:

تمارس معظم الأسر المستجوبة عادات و تقاليد مختلفة من بينها إعداد الأكلات التقليدية و خاصة الخفاف في كل من مدينة البليدة و الجزائر العاصمة و هوما يعرف بالسفنج في مدينة وهران.يحضر الخفاف خصيصا في هذا اليوم تيمنا باسمه أي من الخفة ليكون الطفل سريع البديهة و لديه خفة في استيعاب الدروس.

المبسس البغرير الرفيس و المبرجة و غيرها من الأطباق و الحلويات التي تعد في الحفلات و الأعياد و المناسبات تكون حاضرة احتفالا بالتحاق الطفل بالمدرسة لأول مرة هذا الحدث هو يوم عيد بالنسبة لهم و ما هذه الممارسات في نظرهم إلا محاولات لوضع الطفل في جو مريح، تحبيبه في المدرسة، و تسهيل عملية تكيفه مع هذا الفضاء.

المقتنيات و المشتريات:

يرافق دخول الطفل للمدرسة عادات أخرى و هي شراء الملابس الجديدة و إقتناء الأدوات المدرسية، وقد اختلفت أراء المستجوبين حول مدى أهمية وضرورة إقتناء هذه المتطلبات و عن الغاية و الهدف منها, فهناك من يرى بأنها من بعض الحيل التي من شأنها التخفيف من وقع الحدث على الطفل، و هناك من يرى بأنها ثانوية و ليست من أولويات الدخول المدرسي.

هذا و قد طالت المفاخرة المعايرة و المقارنة هذه العادات فهناك من يؤكد على ضرورة إقتناء الأدوات ذات الماركات و الجودة العالية و بأسعار مرتفعة، بحثا عن الحظوة و البروز و عن مكانة إجتماعية ، فالتوجه نحو النمط الإستهلاكي و بروز الفردانية أصبح سببا في السعي نحو التنافس الحاد بين الأسر، ما جعل من

بعض الحاجيات تنتقل من الثانوية إلى الأساسية، ما يدفع ببعض الأسر للإستدانة و الإقتراض خاصة مع تزامن الدخول المدرسي في السنوات الأخيرة مع الأعياد و المناسبات الإستهلاكية.

دور فضاءات ما قبل التمدرس:

لقد أصبح إعداد الطفل ما قبل المدرسة من الأمور المسلم بها في جميع دول العالم، ينقسم هذا الإعداد قسمين، الأول يتعلق بتعليم الطفل الكتابة و القراءة و الحساب، و الثاني تنمية الاستعداد النفسي، العقلي، الجسمي، الانفعالي و الإجتماعي، أي تهيئته الشخصية للوفاء بمطالب المدرسة، و تعتبر هذه الفضاءات مؤسسات تربوية و اجتماعية تسعى إلى تأهيل الطفل تأهيلا سليما للالتحاق بالمرحلة الابتدائية، حتى لا يشعر الطفل بالإنتقال المفاجىء من البيت أو الأسرة إلى المدرسة

و من الواضح أن هذه الظاهرة مرتبطة بتطور الحياة الأسرية بصفة عامة و تغيرها، كتغير نوع السكن، الخوف على الأطفال من الشارع، عمل المرأة، تغير نوع الأسرة و الأدوار التربوية و غيرها.

هذا و لقد أثبتت الدراسات التي أجريت في الجزائر من طرف المركز الوطني للبحث في الأنتربولوجيا الإجتماعية و الثقافية وجود تطور ملحوظ للأمال حول ما قبل مدرسي فهو وسيلة لتحقيق مشروع العائلة، و الآباء يأملون في تحقيق من خلال أطفالهم نوعا معينا من الحياة المثالية، مما يعكس الطموح إلى قيادتهم إلى أبعد حد ممكن في دراستهم منذ هذه المرحلة. كما أكدت ذات الدراسة على أهمية ما قبل المدرسي في مساعدة الطفل للتكيف مع الحياة المدرسية و تأقلمه معها و في تكوين فكره(نورية بنغبريط رمعون, عائشة بن عمار, بدرة معتصم–ميموني, زبيدة سنوسي، شريفة غطاس، 1998، ص13).

و هنا يشير الطاهر مدير مدرسة بالبليدة على أن القسم التحضيري و رياض الأطفال ، تعتبر مهمة في دفع و نبوغ تلميذ السنة الأولى ابتدائي بعد دخوله المدرسة حيث يقول: نشاهد و نجد أروع التلاميذ نشاطا و موهبة و ذكاء حيث سبق لهم دخول القسم التحضيري، الذي ساهم كثيرا في تجنب فشل التلميذ منذ السنة الأولى و تحقيق النجاح و بناء الهدف، و عدم هروب الصغير من الدراسة، مع بداية الأسبوع الأول من دخوله المدرسة، مع ملاحظة أن هذه الظاهرة قلت كثيرا و بدأت تختفي .

و لقد كان المبحوثيين دائما يعقدون مقارنة بين الماضي حيث لم تتواجد هذه المؤسسات، و إن تواجدت فإنه لم يكن هناك إقبال عليها، إلا من قبل فئات قليلة من المجتمع و بين الحاضر فتقول سامية و هي مديرة مدرسة في الماضي كان الطفل يلتحق بالمدرسة دون تحضير أو تجهيز مسبق، أي من البيت مباشرة، فكان اليوم الأول من المدرسة يسوده الحزن و البكاء و الصراخ، و عدم تقبل للمدرسة، كنا نعاني كثيرا مع ظاهرة قلق الإنفصال و عدم التكيف كره للمدرسة و التسرب منها من قبل الطفل.

سن التمدرس :

يعتبر سن ستة سنوات هو السن القانوني للتمدرس، و هناك ما يسمى برخصة تخفيض السن تمنح وفق شروط خاصة.

لاحظنا من خلال المقابلات التي أجريناها أن هناك إقبال كبير على طلب هذه الرخصة لأسباب عديدة لعل أهمها هو محاولة ربح سنة في المشوار الدراسي للأطفال خاصة أولئك المولدون في الأشهر الأولى من السنة ، و قد يسلك الآباء مختلف السبل من أجل الحصول عليها كالنفود المادي و الوساطة و غيرها.

إن إدخال الطفل في سن مبكرة هو أيضا وسيلة للأولياء للتميز، التباهي و التفاخر، و إظهار امتلاك السلطة و النفود أو ما يسمى برأس المال الإجتماعي.

إختيار المدرسة خاصة أو عامة:

من خلال إستجواب الأولياء حول هذا الموضوع ، لاحظنا وجود اتجاهين، اتجاه يرفض المدارس الخاصة و يفضل العامة و اتجاه اخر يفضل المدارس الخاصة

فبعض الأولياء يرفضون فكرة تسجيل أبناءهم في مدرسة خاصة، بدريعة أنها غير متساوية، حيث أن الجانب التجاري في نظرهم يغلب على الجانب البيداغوجي، فيرون بأنها مجرد وسيلة للتميز الإجتماعي و التفاخر المطلوب من طرف بعض الطبقات الإجتماعية، و التوجه نحو هذا النوع من المدارس أصبح

موضة، فهو ليس في متناول الجميع ، و هو يمثل فرصة عند البعض للدخول في الترتيب بحثا عن مكانة إجتماعية جديدة.

و هم يفضلون المدارس العامة ليس فقط لأنها مجانية و تابعة للدولة ولكنها تشمل عدة ثقافات و طبقات من المجتمع عكس المدارس الخاصة التي يزاولها أبناء الأغنياء فقط على حسبهم.

ولكن هناك اتجاه اخر يفضل المدارس الخاصة عن قناعة، لأنها تضمن التكفل البيداغوجي للتلميذ على أحسن مستوى، والنظام الواحد الذي تعمل به يساعد كثير من الأسر، فهي بذلك تعتبر الوسيلة الوحيدة لبلوغ أهدافهم التربوية.

الطفل و الإلتحاق بالمدرسة:

لاحظنا من خلال هذه الدراسة ووفقا للحالات المدروسة فروقا و خصوصيات في السلوكات التي صدرت من الأطفال في يومهم الأول بالمدرسة يمكن أن نوجزها فيمايلي:

- خوف، قلق، حيرة، تساؤلات، شعور بالغربة و الانعزال من المكان و من الوجوه الجديدة ، قد تجعل الطفل يرفض المدرسة، و لكنها في الغالب مشاعر عادية ومؤقتة، قد تكون مرفوقة بأعراض عابرة تزول بسرعة.
- هناك من تدوم معهم هذه الأعراض ما يجعل الطفل يمر بحالة نفسية مزرية و يصل به الأمر إلى ما يسمى بالفوبيا من المدرسة.
- هذا و قد يكون اليوم الأول بالمدرسة يوما تسوده الفرحة و السرور.
- و هناك أطفالا لا تظهر عليهم، ملامح الحزن و لا ملامح الفرح و السرور، تعاش هذه اللحظة، بأنها لا حدث.

إن التكيف أو عدم التكيف المدرسي عند الطفل، يرجع حسب الباحثة روزين دوبري(شرادي نادية، 2011،ص225) إلى محوري أساسيين هما: الإمكانيات الدفاعية للطفل، التي تلعب دورا هاما في عملية

التكيف مع المحيط الجديد، و ذلك في تعامل هذه الإمكانيات مع قلق الانفصال، أي الابتعاد عن الأم، و كذلك نوعية العلاقة مع الموضوع التي يكون الطفل باستطاعته تكوينها مع المعلم.

إيقاع المدرسة و الإيقاعات الفردية و الجماعية:

إن الحديث عن الدخول المدرسي هو حديث عن دخول ثقافي اجتماعي اقتصادي و سياسي، فالدخول إلى المدرسة هو ظاهرة تهم شرائح و فئات كبيرة من المجتمع ، فالأسرة مثلا تعيش هذا الوضع كتغير تقلب و تحول في الإيقاعات الفردية و الجماعية، يعاد تأسيس و بناء شبكة زمنية خاصة بأيام المدرسة و يمتد هذا التأثير إلى خارج الأسرة.

ظاهرة مرافقة و اصطحاب الأولياء لأبناءهم إلى المدرسة:

إنّ التحاق الطّفل بالمدرسة لأول مرّة يخلق لدى الأولياء، انشغال آخر مرتبط بهذا الحدث خصّيصا، وضرورّي بالنسبة لهم)، نتحدث هنا عن ظاهرة أو ما يمكن أن نسميه بعادة اصطحاب الوالدين، لأبنائهم من وإلى المدرسة يوميا، صباحا ومساءا.

وجدنا الأولياء يشرعون في طرح الكثير من الأسئلة حول، كيف ومن يتولّى؟ مرافقة أبنائهم أثناء الذّهاب إلى المدرسة والعودة منها صباحا ومساءا.

ويقرّ معظم المستجوبين، في إطار هذه الدّراسة، على أنّ هذه العادة هي جديدة عليهم، يعترفون بأنّهم في السّابق، لم يصطحبهم أهاليهم يوما إلى الدّراسة، ولم يرافقهم أحد إلى المدرسة.

ويؤكّد معظم المبحوثين، على أنّ ظاهرة مرافقة الأطفال واصطحابهم، كانت تقتصر فقط، على فئات معيّنة من الأطفال، وعلى المتمدرسين في المدارس الخاصّة، وفي حالة وجود المدارس على بعد مسافات بعيدة من مقرّ السكن، ممّا يضطّر الأولياء إلى نقل أبنائهم ليس لغرض سوى بعد المسافة، لكن مؤخّرا وقبل عشر سنوات تقريبا، انتشرت وطغت هذه الظاهرة، و هذا راجع إلى عدة منها تطور لتمثلات الأباء للأطفال، انتشار ظاهرة اختطاف الأطفال، وغيرها.

تحليل و تفسير نتائج الدراسة:

الأسرة، الممارسات و التغيرات:

إنّ الظّروف العامّة للحياة في المجتمع الجزائري ، قد تغيّرت في السنوات الأخيرة، عدّة عوامل أدّت إلى التّسريع من وتيرة هذه التغيرات الاجتماعية والأسرية، فالمجتمع الجزائري ما قبل الاستقلال كان يعرض صورة مجتمع ريفي تقليدي محافظ وهرمي. مباشرة بعد الاستقلال شهد المجتمع الجزائري ، تغيرات معتبرة مرتبطة بالتّصنيع، التّحضر و الهجرة من الريف إلى المدينة، نتج عنه ظهور هياكل اجتماعية و أسرية جديدة. يقول بوسبسي محفوظ في هذا الصدد: "إنّ الأسرة الجزائرية ظلت طوال الفترة الاستعمارية، مجمّدة فيبنيتها القديمة، وانهار ذلك بعد الاستقلال، لمجموعة من العناصر المتكاملة و المتقاربة ساهمت في تغيير المجتمع الجزائري(Boucebci Mahfoud,1979,P29) "

البنية الأسرية التقليدية قد تغيرت بظهور نماذج عائلية جديدة، فالعائلة التي كانت تستند على التعلق بالأصل الأبوي ، الحصول على أكبر عدد من الأطفال الحصول على مهنة في سن مبكرة، قد مرت بعدة تحوّلات غير متطلبات النموذج التّقليدي.

ومحصّلة ذلك، ظهور الطّابع الفردي، على أشكال الأسرة، وإعطاء للزوجين أدوارا، كانت تؤدّيها سابقا، مجموعة العائلة، بما في ذلك التّكفل التّام، والرّعاية الشّاملة بالأطفال من قبل الوالدين، وإعادة النظر، في لأدوار التّربوية، الحصول على عدد أقل من الأطفال، لقد كان لهذا التّغير نتائج، "فالتّربية في الأسر الجزائرية، كان هدفها، تنشئة الطّفل من أجل انخراطه في المجتمع، في أدوار ومكانات محدّدة، لضمان إعادة إنتاج النظم القائمة (Lahouari Addi,1999,P12)

كان الاهتمام ينصّب على إعداد الأطفال الأنثى و الذّكر لأدوارهم المستقبلية، دور الأم و الأب من جهة، وعضو في جماعة أو مجموعة أسرية لديها هرمية محدّدة من جهة أخرى.

كانت التنشئة الاجتماعية للطّفل وتربيته بصفة عامّة تعتمد بالأساس على أفراد الأسرة، وعلى كل الناضجين من حوله، يتواجد الطّفل معهم طيلة طفولته ويلقى الرعاية و العطف منهم بل قد يصير موضوع استمتاع وتسلية بالنسبة لهم، لكنه في مرحلة الخروج من الفضاء الأسري إلى الفضاء الخارجي وعادة يكون في سنّ مبكرّة، يحدث تغيير جدري في هذه العلاقة التي تتميز أحيانا بالقسوة)مثلا عند تصحيح سلوكه من طرف الأب أو الجد.)

خلال الفترة الاستعمارية أو ما قبلها كان الهدف من إلحاق الطفل بالكتاب هوحفظ القران ومشاركة الفقيه في تعديل سلوكه، فقد كان غالبا يستعمل أسلوبا قاسيا لتقويمه، ويتلقى ذلك تأييدا وتفويضا من الوالدين، حيث تشتد المراقبة على الطفل ويتعرض للعقاب البدني، وذلك يعيق الطفل من اتخاذ مواقف فردية أو من تحسين وضعه داخل الجماعة لدرجة أنه يبقى معولا عليها.

لقد تطور المجتمع الجزائري حاليا ومند الاستقلال، حيث أصبحت المدرسة اجبارية لكلا الجنسين، فهناك تأكيد على أهمّية المرور بهذه المؤسّسة ا لتي أضحت تمثل أساس نجاح الأولاد بالنسبة للوالدين، بعدما كان الهدف الأساسي من التّربية في النّموذج التّقليدي، هو إعداد الأطفال لأداء أدوارهم المستقبلية ضمن العائلة.

حتى الحياة العائلية تغيرت كثيرا ، تقلص حجم الأسرة وتغير وضعية المرأة جعلا الأسرة تتأسس أكثر حول الفرد منها على الجماعة، أدّى ذلك إلى تعدّ د أدوار أعضائها وتداخلها مما ترك مجالا لأنماط جديدة من التكيف تمكّن من تربية الطّفل في هذا الحيز الجديد.

تمثّلات أولياء التّلاميذ ومواقفهم اتّجاه المدرسة :

كان للمدرسة بعد الاستقلال مكانة جد مهمّة لدى معظم العائلات الجزائرية، "كان ينظر إليها أنّها المؤسّسة التّربوية الوحيدة القادرة على تكوين وإعداد إطارات الدولة، واعتبرت فرصة ثمينة للحصول على مكانة اجتماعية مرموقة في المجتمع" حسب كامل كاتب .

في العشرين سنة الأخيرة تغيّرت هذه النّظرة، حيث لم تعد تعتبر وسيلة فعّالة للنّجاح بل على العكس من ذلك، أصبحت هناك "نظرة تشاؤمية حول المدرسة من طرف المجتمع، تحت شعار أنّها مؤسّسة لإنتاج البطّالين. "

على العموم إنّ هناك العديد من الانتقادات الموجّهة للمدرسة بصفة عامة، فمن المستجوبين من يرى أنّ المدرسة تعيش أزمة، يمكن أن تصنّف ضمن المشاكل الكبرى التي يعاني منها المجتمع الجزائري كالبطالة وأزمة السّكن.

وهناك من يرى أنّ للمدرسة مسؤولية عن ارتفاع مستوى البطالة، وبالتّالي ليس لديها معنى إذا لم تكن قادرة على تكوين الشباب.

أمّا البعض الآخر من أولياء التّلاميذ فعبّروا عن قلقهم العميق اتّجاه المدرسة، هذه المؤسّسة الّتي من المفروض أن تلعب دورها المتمثّل في التّربية والتّعليم وخاصّة نقل التّراث الثّقافي ما بين الأجيال، لم تعد تؤدّي دورها بالطريقة الصحيحة، ممّا أثّر على سيرورة تكوين الهويّة الثّقافية لدى الشّباب الجزائري.

رغم الانتقادات الموجّهة للمدرسة والتّعليم، وأزمة الثّقة في هذه المؤسسة، إلاّ أنّنا لمسنا من خلال هذه الدّراسة أهمّية المدرسة والنّجاح المدرسي بالنّسبة للفاعليين الاجتماعيين، وهذا ما يظهر من خلال مختلف التّحضيرات، التّجهيزات والاهتمام الخاص الّذي يحظى به اليوم الأول بالمدرسة، ومحاولة توفير كلّ الإمكانات لإنجاح هذا الحدث الذي يعتبر محدّدا لمستقبل الطفل.

للمستجوبين عدّة اتّجاهات ومواقف اتجاه المدرسة، يقرّون من خلالها على أهمّيتها وقيمتها، واصفين إيّاها بالخطوة الأساسية في التّربية والتّنشئة الاجتماعية للأطفال، فالمدرسة تمثّل لهم، منبعا لإكتساب المعارف ووسيلة للتّطور الاجتماعي، تمكّن الطّفل من التّعلم، الإندماج في الحياة الاجتماعية، تكوين الشّخصية، وتطوير قدراته العقلية، تقول إحدى المبحوثات :

المدرسة تمثّل بالنّسبة لنا، أولا وقبل كلّ شيء التّربية، المعرفة والعلم. إنّها جدّ مهمّة في عائلتنا، أأكّد دائما لأولادي على أهميّة المدرسة، والفرق بين المتعلّم وغير المتعلّم.....إنّ المدرسة هي مكان للمعرفة، الثقافة والتّربية، ولانستطيع بأيّ شكل من الأشكال، أن نقلّل من قيمتها.

إنّ المدرسة والعلم، التّربية والتّعليم هم أساس تطوّر المجتمع.

إنّ المدرسة تمثّل المستقبل لأولادنا والمجتمع بصفة عامّة، المدرسة هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق النّجاح.

هي من بين الجمل المكرّرة من طرف المستجوبين، ممّا يبيّن بأنّ لديهم تعلّق كبير بالمدرسة، حيث يؤكّد أحد المستجوبين قائلا: لست متعلّما ولكنّي، أرى أنّ المدرسة والتّعليم هما الضّوء الذي يرشدنا في الحياة فهما الطّريق الصّحيح للمستقبل.

أهمية التعليم و المشروع الدراسي:

إن التمدرس هو بالنسبة للأسرة موجود ضمن ديناميكية جماعية فنجاح هذا الحدث يعايش على أنه نجاح لكل المجموعة فهو بمثابة مشروع عائلي. فالتحسن في مستويات المعيشة قد أدى إلى ازدياد طموحات الأفراد في الحياة و أوضح مظهر لذلك هو التعليم فالأباء تزداد رغبتهم في تمدرس أبناءهم، و أصبح مستقبل الأبناء يمثل رهانا لدى الأولياء عليهم أن يكسبوه على إعتبار أن المصير المهني فالإجتماعي لهؤلاء الأبناء وأحيانا الأسرة يحدده التمدرس. وهكذا أصبحت المدرسة تعكس طموحات الأسرة فهي مجال يستثمر فيه من أجل نجاح مهني و اجتماعي على اعتبار أنها الوسيلة للارتقاء المادي و الإجتماعي. إن اهتمام الأسر المستجوبة بالتمدرس يرجع إلى إعتقادها في سلطة المدرسة أنها وسيلة للحراك والترقية الاجتماعية و التغيرو الحصول على مكانة اجتماعية.

صار الأولياء يلجؤون إلى كل الوسائل مستعمليين علاقاتهم الشخصية و القرابية و الولائية و مراكزهم الإجتماعية ووظائفهم وهكذا أصبح الرصيد العلائقي أو الرأسمال الإجتماعي يستعمل كاستراتيجية من الإستراتيجيات. وتترجم الممارسات الأسرية إلى أشكال مختلفة ومظاهر متنوعة ومتعددة كالتوجه نحو

المدارس الخاصة و البحث عن أحسن المدارس العمومية و أحسن المعلمين ومحاولة إدخال الطفل في سن مبكرة توفير مختلف الإمكانيات المادية منها و الاجتماعية لإنجاح هذا الحدث.

الرأسمال الإجتماعي:

فقد يلجأ بعض الأولياء إلى إستعمال رأسمالهم الإجتماعي أي رصيدهم العلائقي من أجل الحصول على رخصة تخفيض السن أو في اختيار القسم و المدرسة بل وحتى المعلمة لأبنائهم.

فقبل التحاق الطفل للمدرسة يبدأ الأولياء بالسؤال عن المدرسة وعن المعلميين من حيث سلوكاتهم وتعاملهم مع التلاميذ ويسألون عن سمعة المدرسة عن مستوى توفر النظام وعن نسبة النجاح التي حققتها في الإمتحانات بل وحتى عن نوعية الأطفال الدين يزاولون الدراسة بها . وهنا نجد أن لشبكة العلاقات دور هام في هذه الممارسات فمثلا السن القانوني للتمدرس هوسن ستة سنوات لكن الحصول على رخصة تخفيض السن يتم عن طريق علاقات معينة. وهكذا تتعددالأسباب المبررات وتتعدد الوسائط والتدخلات.

الممارسات و المستوى الإقتصادي للأسر:

المصاريف الخاصة بهذا الحدث متنوعة وتهيئة الظروف المادية تأتي في مقدمة الأعمال التي يقوم بها الوالدين بهدف خلق الإطار المناسب لدراسة أبناءهم، ونلاحظ هنا تفاوتا بين العائلات التي تنتمي إلى فئات إجتماعية مختلفة تحكمها مداخيل العائلة، فتؤثر الظروف الإقتصادية للأسر على الممارسات وعلى بعض التوجهات. إذ قد يتحصل أبناء العائلات الغنية والميسورة الحال على إمتيازات لا يتحصل عليها أبناء الطبقات الأخرى ولا سيما الفقيرة كالتوجه نحو المدارس الخاصة. كما قد يشكل العمل على توفير الظروف المادية عبئا على البعض وخاصة على الأسر التي لديها عددا كبيرا من الأبناء المتمدرسين، فتلجأ في أغلب الأحيان إلى الإستدانة والإقتراض لتلبية حاجات أبناءها من مقتنيات ومشتريات ومصاريف خاصة باللباس و الأدوات و الكتب المدرسية التي تعرف إرتفاع في الأسعار حسب المبحوثين.

كما أن توفر العرض، تنوعه و الطلب على المقتنيات ذات الماركات العالية من جهة و بحثا عن التميز و التفاخر في ظل التنافسية التي ظهرت في إطار التغير الذي عرفه المجتمع بصفة عامة جعل الأسر تلجأ إلى هذه الممارسات.

المستوى التعليمي للوالدين وإعادة الإنتاج الإجتماعي و الثقافي:

إحراز رأسمال تعليمي معين يجعل الأولياء أكثر حرصا على التعليم والنجاح مند لحظة إلتحاق الطفل بالمدرسة، فيحاولون إيجاد وتهيئة الظروف المناسبة لذلك، إذ تعتقد الأسر التي لدى الأزواج مستوى جامعي أنه لابد عليها المحافظة على وضعها التعليمي المادي و الإجتماعي الذي تعيشه أو استفادت منه.

الخاتمة:

إنّ التحاق الطفل لأول مرّة بالمدرسة هو مرحلة عبور وانتقال من وضعية إلى أخرى مغايرة. من وضعية الطّفل إلى وضعية التّلميذ ومن فضاء الأسرة إلى فضاء آخر مختلف من عدّة جوانب، نوعية الفضاء، العلاقات والنّظام المفروض...وغيرها.

يحرس الأولياء على أن يتم هذا الحدث في أحسن الظروف فقد أضحى السّهر على إعداد الطفل وتمدرسه هو الرهان الرئيسي للعائلة.

فالتحسن في مستويات المعيشة قد أدى إلى ازدياد طموحات الأفراد في الحياة وأوضح مظهر لذلك هو التعليم و زيادة رغبة الأباء في تمدرس أبناءهم، إذ أصبح مستقبل الأبناء يمثل رهانا لدى الأولياء عليهم أن يكسبوه على إعتبار أن المصير المهني فالإجتماعي لهؤلاء الأبناء وأحيانا الأسرة يحدده التمدرس.

لم نلحظ أي تمييز بين الجنسين الذكر والأنثى من خلال الممارسات الملاحظة في إطار هذه الدراسة.إذ لا يؤثر جنس الطفل على أهمية هذا الحدث ولا على العناية التي توليها الأسر له.

وتؤكد جميع الفئات حتى تلك التي لها مستوى إبتدائي على أهمية هذا الحدث، فيحاولون تحقيق آمالهم ومشاريعهم التي لم يتمكنوا منها فيما سبق بأبناءهم.

إلا أن إحراز رأسمال تعليمي معين يجعل الأولياء أكثر حرصا على التعليم والنجاح مند لحظة إلتحاق الطفل بالمدرسة، إذ تعتقد الأسر التي لدى الأزواج مستوى جامعي أنه لابد عليها المحافظة على وضعها التعليمي المادي والإجتماعي الذي تعيشه أو استفادت منه.

وقد تبين كذلك أن لشبكة العلاقات أو ما يسمى برأس المال الإجتماعي دور هام في هذه الممارسات، هذا و تؤثر الظروف الإقتصادية للأسر على الممارسات وعلى بعض التوجهات. كما طالت ظاهرة التّفاخر هذه المناسبة، وهو ما يمكن اعتباره من بين مظاهر التغيير الحاصلة في المجتمع.

وبذلك تتعدد الممارسات والتوجهات ولكن الهدف واحد تحقيق النجاح والحصول على مكانة إجتماعية التي لم تعد ممكنة دون المرور بالمدرسة على حسب الفاعليين الإجتماعيين.

نؤكد في الختام أنّنا لاندعي أننا وصلنا إلى نتائج في غاية الإحاطة حول موضوع الدّراسة، فهو موضوع متعدد الجوانب ويمكن مقاربته من زوايا عديدة، إذ تبقى العديد من الجوانب الهامة لهذه الممارسات لم ننصفها حقها من التحليل والتفسير. كالتعمق في جانب من جوانب الدراسة كالجانب الخاص بالمدارس الخاصة و المدارس العامة و عقد مقارنة بينهما فيما يخص لحظة إلتحاق الطفل بالمدرسة مثلا. أو القيام بمتابعة الطفل في مرحلة ما بعد الدخول المدرسي و ملاحظة مدى تأثير هذه الممارسات على تحصيله الدراسي لاحقا .

. قائمة المراجع:

1. مرابط إيمان، حوصلة بحث وثائقي حول المدرسة الجزائرية: الدراسات الموجودة بمركز البحث في الأنتروبولوجية الاجتماعية والثقافية، في مجلة إنسانيات، المدرسة: مقاربات متعددة، العدد77- 80، 1998، ص61.
2. رائد خليل سالم، المدرسة و المجتمع، مكتبة المجتمع العربي، ط1، عمان، 2006، ص 33.
3. بنغبريط رمعون نورية، بن عمار عائشة، معتصم-ميموني بدرة، سنوسي زوبيدة، غطاس شريفة، مسارات التمدرس وفضاءات التنشئة الاجتماعية، في إنسانيات، المدرسة مقاربات متعددة، عدد 6، مجلد 3-2، مركز البحث في الأنتروبولوجية الإجتماعية و الثقافية، 1998، ص50- 35.

4. منصف الحواشي، الطقوس وجبروت الرموز: قراءة في الوظائف والدلالات ضمن مجتمع متحول، في إنسانيات، معرفة وديناميات اجتماعية، عدد 49، مجلد 14، 3، مركز البحث في الأنتروبولوجية الثقافية و الإجتماعية، 2010، ص20.

5. نورية بنغبريط رمعون, عائشة بن عمار, بدرة معتصم–ميموني, زبيدة سنوسي، شريفة غطاس,« مسارات التمدرس وفضاءات التنشئة الاجتماعية »، مرجع سابق، ص 13.

6. شرادي نادية، التكيف المدرسي للطفل والمراهق على ضوء التنظيم العقلي، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الثانية، الجزائر، 2011، ص225.

7. Benamar Aicha, Le préscolaire en Algérie à l'heure de la réforme: dynamiques comparées des offres publiques et privées, dans, Carrefours de l'éducation, 2012/2, n°30, p99.
8. Boucebci Mahfoud, Psychiatrie société et développement, Alger, SN ED, 1979, p 29.
9. Lahouari Addi, Les mutations de la société algérienne, famille et lien social dans l'Algérie contemporaine, la découverte, paris, 1999, p 12.